روحانيّة الشرق السريانيّ:
التراث والأبعاد والإشكاليّات

في كتاب العالِم الراحل
الخوري يواكيم مبارك (١٩٢٤-١٩٩٥)
«مخدع القلب الزوجيّ»*

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ**

لم أعد أتذكّر اليوم الذي التقيت فيه الخوري يواكيم مبارك، ولكنّي أتذكّر جيّدًا الكلمات التي سمعتها عن لسانه يومَ أحد الفصح في كنيسة سيّدة لبنان الباريسيّة العامَ ١٩٨٠، وكان يلقي عظة المناسبة. سمعتُه يقول «إنّ المارونيّة، وإن حملت الصليب والألم، لا تنسى، عبر الإفخارستيّا، أنّها في فصح دائم وقيامة مستمرّة. المارونيّة حركةٌ روحانيّة لها جذورها في ماضي الشرق الأنطاكيّ المسيحيّ، لا تتحدّد بجغرافيّة معيّنة ولا بحواجز مصطنعة. إنّها في خدمة الحياة والعيش المشترك والتعاون والصداقة والمحبّة، وكلّ ذلك في كثير من التواضع والوعي الذاتيّ».

وصيف ١٩٩٢، بعد سنوات العمل الجادّ في سبيل المجمع اللبنانيّ الثاني، انسحب الأب مبارك من عمل عاشه على مستوى الرجاء الكبير،

(*) *La chambre nuptiale du cœur. Approches spirituelles et questionnements de l'Orient Syriani*, par Youakim Moubarak, «Libanica» IV, Cariscript, Paris, déc. 1993, 126 pages.

(**) رئيس تحرير مجلّة المشرق.

إلّا أنّه لم يُنجَز ولم يتحوّل إلى تاريخيّة على شاكلة المجمع اللبنانيّ الأوّل. وهذا الانسحاب قاده إلى عزلة روحيّة في باريس وجوارها، وكان بداية لعملٍ تكوّن في فكره وتصوّراته منذ أمد بعيد، وكان يعتبره، حتّى في جهده المجمعيّ، قناعة أساسيّة وأوّليّة. إثر خروجه من الساحة اللبنانيّة، اختار يواكيم مبارك الغوص في مجال الروحانيّة السريانيّة، في جذورها ومنطلقاتها، في أشكالها وآبائها وإطارها. وسريعًا، وبعد سنة على استقالته من أمانة سرّ المجمع اللبنانيّ وأمانة سرّ مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان، صدر له كتابٌ صغير بالفرنسيّة يحمل العنوان التالي: مخدع القلب الزوجيّ، مقاربات روحانيّة للشرق السريانيّ وإشكاليّاته. والكتاب، المُهدى إلى الأب جان - موريس فيه الدومينيكانيّ، مؤرِّخ الشرق المسيحيّ، جاء في ١٢٦ صفحة من القطع الوسط، ويتضمَّن معالم الروحانيّة السريانيّة في خطوطها العريضة بحسب تصوُّر الخوري يواكيم مبارك. وهو الأخير في سلسلة مؤلّفاته الصادرة قبل وفاته.

والهمّ الروحانيّ عند مبارك، ليس وليد الصدفة أو إنّه ردّة فعل حيال ظروف معيّنة. إنّه همٌّ متأصّل في وجدانِ المارونيّ المترهِّب، الآتي من شمال لبنان حيث نشأت الرهبانيّة ونمت على روحانيّة إنجيليّة متأصّلة. وهو همٌّ له جذوة في فكر مَن رافق العالِم لويس ماسينيون وفي ثقافة مَن تطرَّق إلى الكثير من الموضوعات والقضايا، فكانت له عدّة مطالعات ذات طابع روحيّ وفي الروحانيّة، ككتابه في القدّاس (١٩٥٨)، والتجديد الليتورجيّ (١٩٦٢)، وبستان الشرق السريانيّ الروحانيّ (١٩٧٧) وما جاء في الخماسيّة المارونيّة الأنطاكيّة (١٩٨٤)، وأخيرًا رياضته التي ألقاها في الرهبانيّة الأنطونيّة وقد عنونها: «الروحانيّة بين الأمس واليوم»، ونشرتها مجلّة حياتنا الأنطونيّة في عددها التاسع الصادر سنة ١٩٨٦.

أقسام مخدع القلب الزوجيّ هي كالتالي: المقدّمة (الصفحات ٥ - ١٢)، أوّلًا: طرق الشرق السريانيّ الروحانيّة، في ثلاثة فصول: الشروط الزمنيّة، البنى الكنسيّة، ومناخ الحياة الروحانيّة وثوابته في العالم السريانيّ (ص ١٣-٢٩)، ثانيًا: عناصر روحانيّة من الشرق السريانيّ في أدبيّين

روحانيّين أساسيّين، في فصلين: كنّارة الروح القدس وطريق الشيخ الروحانيّ (ص ٢٩-٦٤)، ثالثًا: الإشكاليّات والمفارقات أو خمير الشرق السريانيّ الروحانيّ في مواجهة شروط العيش الجديدة في العالم المعاصر في اثنتي عشرة نقطة، (ص ٦٥-١٠٨)، بعض المعالم البيليوغرافيّة (الصفحات ١٠٩-١١٤)، والخاتمة في فصلين (ص ١١٥-١٢٢).

يركّز مبارك في المقدّمة على بعض الأمور:

- يركّز أوّلًا على خصوصيّة الشرق السريانيّ (وهو يفضّل تعبير L'Orient Syriani على Syrien للابتعاد عن كلّ خلط سياسيّ، وعلى Syriaque لئلّا تُفسَّر الصفة بأنّها لغويّة وأنّ الشرق كلّه يتكلّم السريانيّة، وعلى Syro-antiochien، إذ إنّ الشرق السريانيّ لا يمكن حصره بأبرشيّة أنطاكية). إنّه تركيز على خصوصيّة الروحانيّة السريانيّة. والشرق السريانيّ هو النسيب المحتقر في إطار المسكونيّة، إذ لا اعتبار له، بل إنّه مهمّشٌ لا دور له على الصعيدين الأكاديميّ والكنسيّ. بالرغم من ذلك فإنّ سريانيّة الكنيسة تمثّل الدور الشريك الفاعل في تنمية روح المسكونيّة، وهي الخمير الروحانيّ الواعد عندما ننظر إلى الماضي وتراثه الحيّ.
- في الثلاثين سنة الأخيرة، حدث تجدّد مهمّ في الدراسات السريانيّة تمّ على «يد أعزّ أصدقاء الشرق في كنيسة الغرب»، ولا بدّ من كلمة تقدير لما قاموا به. يقول الخوري يواكيم في هذا الشأن: «إنّي أمتشق المهمّة في آخر المطاف بعد أن شدّني سير أعمالي الجامعيّة إلى الدراسات الإسلاميّة، ثمّ ربطتني الظروف المأساويّة بالحقل الماروني. إلاّ أنّه يبقى متّسعٌ من الوقت للقيام بالعمل الصالح وبعض الشعور بالذنب يدفع للسير على طريق جديد سيرًا حثيثًا» (ص ٩٠). والصفحات التي يكتبها الخوري مبارك موجّهة إلى المؤمنين شرقًا وغربًا، لكن بصورة محدّدة. فالدراسات الأكاديميّة الحاصلة في إطار السريانيّة مهمّة ومتنوّعة وذات قيمة، ومنها التي تحاول تبسيط الموضوعات والمحتوى، إلاّ أنّ ما ينقص هو المحور، أي المكان الذي يعاش فيه التراث السريانيّ، مثله مثل التراث البيزنطيّ والتراث اللاتينيّ. فماذا يَمنع العلماء والدارسين

والمتذرّقين أن يزرعوا في جسم الكنيسة الجامعة شيئًا من تراث الروحانيّة السريانيّة؟ يا حبّذا لو تستمرّ الزيارات الروحانيّة التي يتحدّث عنها الآباء السريان، فتصبح زيارات الكنيسة السريانيّة وروحانيّتها موجّهة نحو الكنيسة الجامعة!

- ويختم المؤلّف مقدّمته بالدعوة إلى تحاشي نزعتَين: الأولى هي النزعة التبشيريّة الالتفافيّة - وهذا بعيدٌ عن الروحانيّة السريانيّة - والثانية هي النظر إلى الشرق المسيحيّ السريانيّ وكأنّه مجموعة تاريخيّة لا تصلحُ إلاّ لعلم الآثار. إنّ الشرق المسيحيّ السريانيّ هو فاعلٌ حيّ له دوره الوجوديّ.

إنّ الإطار الذي نشأت فيه الروحانيّة السريانيّة يتميّز بتاريخ لا يتردّد مبارك بوصفه بالتاريخ «الذليل المُهان»، إذ إنّ مسيحيّي الشرق السريانيّ نالوا نصيبهم من الإمبراطوريّات المسيحيّة والإسلاميّة. ويبرّر مبارك هذا الوصف بسرد تاريخيّ موضوعيّ. وهذا التاريخ هو أيضًا تاريخ الشرق السريانيّ «المُحاصَر والمُشتَّت». فهو «مُحاصر» لأنّ الحياة المدنيّة ممنوعة عليه، و«مشتَّت» لأنّ الارتداد إلى حياة العبادة وتقوقع الحياة المدنيّة فيها يدفعان أبناء الجماعة إلى الهجرة والشتات. ومع ذلك كلّه، فتاريخ الجماعات السريانيّة الشرقيّة هو تاريخ الجماعات المتجذّرة والمُتقنة والمُشرقة، وهذا ما جعلها تتمدّد خارج حدود الشرق، ضمن حياة رسوليّة ناشطة، حتّى القرن الثالث عشر. ولا شكّ في أنّ هذه الجماعات قامت، إبّان القرون الوسطى، بدور الوسيط الثقافيّ بين اليونانيّة والعربيّة أوّلًا، ثمّ بين الحضارة العربيّة وزمن الحداثة المعاصرة ثانيًا.

إنّ البنى الكنسيّة ثلاث مترابطة: البنية البطريركيّة، ثمّ البنية الرهبانيّة التي حدّدت البنية الثالثة وهي إطار الكنيسة الليتورجيّ. والواقع أنّه إذا كان المثال الرهبانيّ هو الذي أعطى البنية البطريركيّة القوّة والمتانة، فإنّ البنية الأخيرة كانت ضرورة كنسيّة ماسّة للحفاظ على حياة الشركة.

وما يهمّنا في مجال الثوابت التي يستخرجها مبارك من تاريخ الكنائس الشرقيّة السريانيّة هو مجموع الخصائص التي تتميّز بها الروحانيّة السريانيّة، وقد عرضها في ستّ نقاط:

أوّلًا: إنّ الحياة الليتورجيّة هي عمود الكنيسة السريانيّة الفقريّ، وتنظّم الحياة اليوميّة في الممارسات الرهبانيّة وأهمّها تلاوة الفرض الإلٰهيّ، إلّا أنّ الجوهر الأسراريّ هو الذي يعبّر عن ماهيّة العمود الفقريّ. ومع أنّ الحياة الإفخارستيّة لم تتطوّر كما حدث منذ القرون الوسطى في الكنيسة الكاثوليكيّة، إلّا أنّ الشاهد على أهمّيّتها في الشرق السريانيّ هو تعدُّد النوافير التي بلغت السبعين على أقلّ تقدير، وهذا ما يجعل منها مدرسة الحياة المسيحيّة الأولى. وقبل الإفخارستيّا، يطبع العماد بطابعه حياة المؤمن، علامة اتّحاد بالمسيح، عبر ثلاثة نماذج: المسيح العريس، تصوّر العماد عودةً إلى الفردوس، تشبيه حياة المعمَّد بالحياة الملائكيّة.

ثانيًا: إنّ ما يميّز الحياة الروحيّة هو إحساس عميق بانقطاع المسيحيّة عن اليهوديّة إلى حدّ المعاداة، وذلك ما هو بيّن في الكثير من النصوص، كما هو الأمر في تصوُّر أفرام الذي رأى أنّ إسرائيل - العروس قد اقترف الخطيئة في المخدع الزوجيّ.

ثالثًا: إنّ الخصوصيّة الشرقيّة السريانيّة تؤكّد الجذّة المسيحيّة تأكيدًا واضحًا. وهذه الجذّة تؤدّي إلى رفض كلّ ما ليس هو رأي المسيح العريس. إنّه بعد أساسيّ في الدعوة الأنطاكيّة نجده عندما نقلّب صفحات الآباء الروحانيّين. وهذا التعلّق بشخص المسيح يؤدّي إلى التعلّق ببشريّة المسيح وهو التعلّق نفسه بحرفيّة المعنى الكتابيّ. فالجوّ المسيطر هو جوّ العرس حيث إنّ الحياة الروحيّة تجد نفسها غائصة في ذلك العرس، وكذلك الكنيسة، بأبعادها الأسراريّة والمعمدانيّة والإفخارستيّة.

رابعًا: لا بدّ أن تثير عودة الربّ المخافة، فيستعدّ لها المؤمن بالصلاة والسهر. والشرق السريانيّ جمع بين المترهّد المصلّي الساهر المستعدّ للعودة مع الراهب العائش في المخافة، لأنّ العودة هي المقدّمة للدينونة. والإطار النهيريّ في هذه المعاني، هو الذي رفع من مرتبة الليتورجيا وصلاة الفرض وصلاة الحسّاي التي تطلب مغفرة الخطايا. وربّما نستطيع تفسير الجذّة المسيحيّة بالانتباه إلى حياة الآخرة والنهيا التي تطبع

الروحانيّة السريانيّة في عمقها، وتجعل من الإماتة والتقشّف والممارسات التقويّة كلمات لها صداها في الحياة اليوميّة.

خامسًا: إنّ الترابط بين النهيا - الآخرة والجدّة المسيحيّة، المؤسّسة على الطابع الزفافيّ لعلاقة المؤمن بالمسيح، هي التي تحوّل قساوة التقشّف إلى انتظار العريس الآتي بفرح. ومهما استمرّت الغمامة المُظلمة، فإنّ نور جبل طابور هو الذي سيغمر المؤمن.

سادسًا: ألم يكن هذا المنحى الروحانيّ على حساب الشأن الأرضيّ؟ ألَمْ يُشجّع الهجرة - إلى حدّ تشبيهها بالملكوت - على حساب التجذّر والتأصّل والانثقاف؟ الإشكاليّة تبقى على مستوى السؤال فقط.

لن أتوقّف كثيرًا على العرض الذي يقدّمه مبارك لعَلَمَيْن من أعلام الروحانيّة السريانيّة، أفرام والشيخ الروحانيّ، فهو يقول: «لقد توقّفنا عند أفرام النصيبيّ الرهاويّ، وعند يوحنّا الدلياتيّ. الأوّل هو من القرن الرابع والثاني هو من القرن الثامن، وهما بالتالي يمدّان عصر السريانيّة الذهبيّ. فمن ناحية، ينتمي أفرام إلى العالم السريانيّ الغربيّ، الذي سيصبح على التوالي يعقوبيًّا فملكيًّا ثمّ مارونيًّا، في حين أنّ يوحنّا هو في الأساس نسطوريًّا ثمّ أشوريًّا فكلدانيًّا». وإذا كان اختيار أفرام هو من البديهيّات نظرًا إلى مكانته، فإنّ اختيار يوحنّا الدلياتي، مكان إسحق السريانيّ، جاء بصورة تلقائيّة بعد أن تعرّف مبارك على أطروحة روبير بولاي الكرملي المميّزة في حياة يوحنّا الدلياتي وشخصيّته وروحانيّته (ص ٣٠-٣١). وقد استطاع يراكيم مبارك أن يقدّم في حوالى الثلاثين صفحة خير معالم روحانيّة أفرام ويوحنّا الدلياتي. إلّا أنّه لم يكتفِ بالعرض المعرفيّ، بل إنّه، في كلّ صفحة من الصفحات، أدخل الملاحظات وعزّز المقارنات بالتصوّف والروحانيّة الغربيّة، لا بل بالأدب الغربيّ.

قراءته لأفرام تتوزّع على خمسة عشر مقطعًا: أفرام الشاعر، أفرام اللاهوتيّ المتحدّث عن الأسرار بالقصائد والغناء، أفرام مكمل المزامير بالمزامير. إنّ ما يقوله أفرام نظمًا هو ما تنشده الطبيعة المخلوقة. «فالطبيعة هي الكتاب حيث الجديد يعيد القديم وكلّ كتابة أخرى إلى نشيد

الطبيعة الأخرس؛ ودور الشاعر يكمن في تحرير القصيد والتعبير عن الاتّحاد والتناغم العميق بين الطريقتين اللتين عبَّر بهما الآب عن نفسه، بواسطة كلمته وروحه، منذ بداية العالم» (ص ٣٤). وهذا العمل يحقّقه أفرام بواسطة سلّم الرموز، في رمزيّة الجوهرة والعين والمرآة ومخدع القلب الزوجيّ، حيث إنّ كلمة قلب هي الأهمّ في هذا التعبير إذ إنّها ترمز إلى العاطفة وإلى الجسد معًا. القلب هو منزل الصديق العريس، حيث يستضيف الصديق العريس المسيح العروس. ويفرد مبارك، وهذا بارز في عمله، مكانًا واسعًا للحديث عن أهمّيّة مريم في الأدب الأفراميّ، وكذلك عن الأنوثة، كتعبير عن سرّ الله: «لأنّها قالت له راغبةً: المسيح آت، عبَّر ليا عاشقًا: ها أنا هو» (من أناشيد أفرام).

أمّا مداخلة يواكيم مبارك في يوحنّا الدلياتي، أو في «طريق الشيخ القديم»، فهي تتناول حياته وأعماله وتصوّره لتدرّج الممارسات على المستوى الجسدانيّ ثمّ النفسانيّ فالروحانيّ وما يقابل ذلك على صعيد التأمّلات (التاوُريّا) أو المشاهدات والأعمال. ويتوقّف المؤلّف عند أبرز المحطّات التي تميّز تعليم الدلياتي الروحانيّ، انطلاقًا من «ذكر الله الدائم في القلب»، إلى النظر الباطنيّ والاندهاش والتعجّب والمخافة عند الولوج إلى الداخل حيث الملكوت. وحسنًا فعل مبارك عندما انطلق في شرح ماهيّة الحبّ والمحبّة في تصوّر الدلياتي، الحبّ الذي يتوافق والمرحلة الأولى من تطوّر الحياة الروحانيّة والمحبّة (العشق في ترجمة مبارك) التي تقابل المرحلة الثانية، عند الاستنارة والاتّحاد. وما يثير المحبّة هو جمال الكلمة المتجسّد إذ ترغب فيه النفس الرغبة الجامحة، فتتلوّن هذه المحبّة بالحنان والرقّة والاتّضاع حتّى العذاب من أجل المحبوب.

وما يستوقف الباحث في قراءته كتاب مبارك مخدع القلب الزوجيّ هي الأسئلة أو الإشكاليّات التي يطرحها في الفصل الثالث من كتابه حيث يسعى إلى مقابلة خمير الشرق السريانيّ الروحانيّ بأوضاع حياة العالم المعاصر: «إذا كان من الطبيعي ألّا نقبل إرث الآباء السريانيّ الروحانيّ كمجموعة عناصر كاملة قابلة للاستهلاك، بل كخمير يخمِّر عجينة جديدة،

فلْنَرَ ماذا يحدث عندما يواجه هذا الخمير الأوضاع التي هي خاصّة زماننا والتي هي تختلف كلّ الاختلاف عمّا عايشه معلّمونا في زمانهم» (ص ٦٥).

وما هي المسائل التي طرحها مبارك في هذا الإطار؟

إنّه وضع جدولًا من اثنتي عشرة مسألة لها علاقة بالإرث المنقول والواقع المعاصر. هذه المسائل هي التالية: في خصوص العزلة في «البرّيّة»، الصراع مع الشياطين والألفة مع الملائكة، العمل اليدويّ، الأصوام، السهر، الإماتة عامّةً، الزواج والبتوليّة، العذراء مريم والروح، الحضور الإفخارستيّ والممارسات الإفخارستيّة، النهيويّة والالتزام الدنيويّ، طريق القلب والسكينة والنرفانا والأدفيتا، التأمّل المشاهدة والرسالة. وكلّها، في الواقع، مواضيع حسّاسة وجوهريّة في الحياة الروحيّة اليوم، فلا تهمّ الراهب فقط بل الكثير من الناس في مجتمعاتنا شرقًا وغربًا.

لا مجال لعرض آراء مبارك بالتفصيل في كلّ مسألة من هذه المسائل. أكتفي باستخراج بعض المقاييس الأساسيّة التي يشدّد عليها:

- إنّه يركّز بشدّة على الأشكال الأوّليّة والطرق القديمة التقليديّة التي عرفتها الحياة الروحانيّة عند آبائنا السريان. هذا ما نجده في حديثه عن العزلة في البرّيّة والعمل اليدويّ والأصوام والأسهار والممارسات الأخرى، وهي تساعد المؤمن اليوم في تنظيم نفسه وجسده.
- إنّه يدعو للابتعاد في ذلك كلّه عن كلّ مغالاة، وعن الشكليّات التي لا معنى لها. في هذا المجال، لا مانع من الاستعانة بعلم النفس والعلوم الإنسانيّة الأخرى لضبط ما هو من الروح حقيقة وما هو من نزعات نفسيّة غير منظّمة ليست سوى تعبير عن نزوات ودوافع لا واعية.
- كلّنا يعلم كم أنّ فكر يواكيم مبارك هو فكر انفتاحيّ وعالميّ شموليّ. إلاّ أنّه ينطلق من خصوصيّة معيّنة في ما يهمّ الروحانيّة السريانيّة، فيقارن بينها وبين الاختبارات الأخرى (في مواضيع ذكر الله والعذريّة والالتزام الدنيويّ) محاولًا أن يحدّد ماهيّة الاختبار الروحيّ الملازم لكلّ إنسان. إنّه الصراع مع الذات ومع الآخرين للوصول إلى ملكوت العدالة والخير

والمحبّة. ولا شكّ أنّ الاختبار الروحيّ، أو الممارسة الروحيّة النشيطة التي تتحوّل إلى حدثٍ وفعل، هي التي تقود كلّ ممارسة سياسيّة صحيحة لا بل يجب أن تقترن بتلك الممارسة السياسيّة.

- اللاهوت المريميّ له موقعه في تصوُّر مبارك للروحانيّة السريانيّة. هو يقرّ بأنّ هذه الروحانيّة - من ناحية أفرام والدلياتي على الأقل - لا تذهب بعيدًا في التكريم والتقويّة. إلاّ أنّها عمدت إلى جعل مريم عنصرًا أساسيًّا وعضويًّا في سرّ الخلاص، إذ إنّ مريم هي المخدع الزوجيّ على الإطلاق، وقد استقبلت في حضنها الروح القدس، فكان الابن هو العطاء الأسمى للعالم. وحضور الروح القدس الفاعل في مريم أمّ يسوع المسيح هو حضور الآب في قسمات الأنثويّ الأبديّ.
- ولدى يواكيم مبارك همٌّ مسكونيّ، وهو يجد في الروحانيّة السريانيّة ما يؤكّد الروح المسكونيّة، عندما يجعل مشاهدة العريس في صلب الكنيسة سواء على مستوى تراتبيّتها، أو في كونها الكنيسة المعلّمة، أو الكنيسة المحبّة. عندما نضع «المشاهدة» في أساس الرسالة، فإنّ اللقاء بالآخر، المرسَل إليه، يكون لقاءً حقيقيًّا ذاتيًّا.

يصعب القول إنّنا استوفينا في هذه الصفحات كلّ العناصر التي تتألّف منها الروحانيّة السريانيّة في تصوُّر يواكيم مبارك، وهو كان قد باشر بموسوعة كبرى في الروحانيّة السريانيّة كتب منها الجزء غير اليسير، أعني حوالى السبعين بالمئة ممّا كان قد وضعه نصب عينيه، وكان قد قام بالدراسات التمهيديّة مدّة سنتين على الأقل قبل المباشرة بها باللغة العربيّة. وعسى أنْ تصدر هذه الموسوعة قريبًا بهمّة المريدين والبحّاثة.

ولا بدّ من الإشارة أخيرًا إلى أنّ هذا الاهتمام التاريخيّ الفكريّ بالروحانيّة السريانيّة هو محطّة أساسيّة في حياة يواكيم مبارك الأكاديميّة والكهنوتيّة والكنسيّة، لا بل الوطنيّة. فهو رائد من روّاد الإصلاح في الكنيسة، وما إصلاحه وترميمه لدير قنّوبين، دير الحبّ، والنسّاك، إلاّ إشارة رمزيّة. فالإصلاح الوطنيّ لا يقوم إلاّ على روحانيّة متأصّلة.

صدر عن دار المشرق